

﴿ قُلْ فَضَّلَ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

ويعرفو سبحانه عن الكثير ، وباب رحمة وفضله مفتوح ويفسح التوبة لكل عاصٍ . ومن فضل الله أنه جعل بعضاً من الكفار يقفون في بداية الإسلام ضد المسلمين ثم يكونون من بعد ذلك سيوفاً للإسلام ، وسبحانه الرحيم الذي يجمعنا للحساب يوم القيامة الذي لا ريب فيه ولا شك ، ونسير جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم وبأق الكافر على رغم أنفه ، والمؤمن يتيقن رحمة الله وفضله ويفرح بلقاء ربه .

والكافر - والعياذ بالله - قد خسر نفسه بعمله مصداقاً لقوله الحق : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » وخسران النفس مترتب على عدم الإيمان ؛ لأننا لو نظرنا إلى الغايات وإلى الوسائل لوجدنا أن الوسيلة تأتي قبل الغاية ، ولكن في التحضير للعمل الغاية تتضح قبل الوسيلة ؛ فالذي يستذكر إنما يستحضر في ذهنه الغاية وهي النجاح ، فيبذل الجهد لينجح ؛ لأننا نعلم أن كل شرط هو واقع بين أمرين ، بين جواب دافع ، وجواب واقع ؛ فالنجاح دافع للمذاكرة ، والمذاكرة تجعل النجاح واقعاً ، ويقول ابن الرومي :

أَلَا مَنْ يُرِيدُ غَايَتِي قَبْلَ مَذْهَبِي
وَمِنْ أَيْنَ وَالْغَايَاتُ بَعْدَ الْمَذَاهِبِ ؟

وهذا القول منه غير منطوق ؛ لأن الإنسان عليه أن يتنبه إلى الغاية وأن يتعرف على الوسيلة التي توصله إلى الغاية ، فإذا كانت الغاية أن يذهب الإنسان إلى الله ، والوسيلة هي المنهج ، فلماذا الحيرة إذن ؟ وهكذا نعلم أن الذين لم يؤمنوا قد خسروا أنفسهم لأنهم لم يميزوا الغاية الدافعة وهي الذهاب إلى الله والتزول على حكمه ، عن الغاية الواقعة وهي الوسيلة ، وسبحانه قد يسرها لعباده إذ قد أن لهم بالمنهج الذي يسرون عليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ۝١٢﴾

إن من عظمة الموجد الأعلى الواجب الوجود أنه يتكلم عن نفسه بضمير الغيب وهو سبحانه القائل في أول بعض الآيات : « قل هو الله » .

وقل « هي أمر ، فكان الحق حين يقول : « هو » فلا يمكن أن تطلق « هو » إلا على الله ولا تنصرف إلا لله . « وله ما سكن في الليل والنهار » وكلمة « سكن » هي من مادة السين والكاف والنون ، وثاني لمعان متعددة : فتكون من السكنى أى الاستيطان ، وتكون من السكون الذى هو ضد الحركة . والمثال على الاستيطان هو قول الله لأدم :

﴿ أَسْكَنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إن الحق سبحانه يقول هنا : « وله ما سكن في الليل والنهار » فكان الليل والنهار طرف ، وكل الوجود مطروف فيه . وظرفية الليل والنهار تأتى على ظرفية المكان وهو الأرض . وكل مكان في الأرض يأتى عليه الليل والنهار . فإن أردنا الاستيطان في السكن فهي موجودة ، وإن أردنا ما من السكون - وهو ضد الحركة - فهي موجودة ، ذلك بأن كل متحرك يؤول إلى ساكن ، والإنسان سيد الحركة ثم يموت أو يسكن في الأرض . وهكذا نرى أن الجنس الأعم الذى يشملها معاً هو « ما سكن » ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

(سورة الأنعام)

وحيثما يقول : « وله ما سكن في الليل والنهار » ، فهو يتكلم عن الزمان واحتوائية الزمان للزمانيات ، أى للأشياء التى تحدث في هذا الزمان . والإنسان كما نعلم حدث . وكل ما يطرأ عنه حدث ، وكل ما فى الكون حدث ، وقد أحدثه الحق الواجب الوجود .

ومادام الحدث قد وجد فلا بد له من زمان ولا بد له من مكان . أما مكان الحدث فهو السماء والأرض وما بينهما . وأما زمان الحدث فهو الليل والنهار .

اذن فالحق قد تكلم عن خلق الزمان من بعد أن أعلن لنا أنه خالق المكان .

﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ قُلُّهُ﴾

(من الآية ١٢ سورة الانعام)

ومكثدا نعلم أن الزمان والمكان قد وُجدا عندما شاء الله أن يحدث هذا الكون . ولا تقبل أبداً أيها الإنسان : أين كان الله قبل أن يخلق الكون ؟ لأن « أين » هي بحث عن مكان ، و« متى » هي بحث عن زمان . و« أين » و« متى » إنما وجدنا بعد وجود الحدث في الكون . والكون هو ظرف قار أي شيء ثابت . والزمان هو ظرف غير قار ، لأنه يكون مرة ماضياً ، ومرة يكون حاضراً أو مستقبلاً .

والحق سبحانه عندما قال : « وله ما سكن في الليل والنهار » أي أن له الظرفين : القار وغير القار . أي له - سبحانه - الساكن وكذلك له ما يتحرك في الكون ؛ لأن كل متحرك يزول أمره إلى سكون . أو أن قوله الحق : « وله ما سكن في الليل والنهار » أي ما حل في الليل والنهار ، أي له سبحانه ما حل في الليل والنهار متحركاً كان أو ساكناً .

والحق يذيل هذه الآية بقوله : « وهو السميع العليم » فالسمع متعلق بالسموع أي الذي له حركة ، والعلم متعلق بالسموع والنظور والشموم وكل شيء من آلات الإدراك ؛ لذا جاء قوله - سبحانه - : « وهو السميع العليم » ليشمل المتحرك والساكن ، فسبحانه لا يعزب ولا يغيب عنه شيء .

ونعلم أنه إذا أخبر الحق عن نفسه بصفة من صفات يوجد مثلها في البشر فنحن نأخذها في إطار « ليس كمثله شيء » . فأنت أيها الإنسان لك سمع فيقال عنك : سميع . ولك علم فيقال : عليم . ولك بصر فيقال : مبصر . ولك قدرة فيقال : قادر . وقد تكون ذا مال وفيقال : غني . ولك وجود فيقال : موجود . وأنت حي فيقال : حي .

لكن أمده الصفات التي فيك هي عين الصفات التي في الله ؟ لا ؛ لأن صفات الله إنما نأخذها في إطار « ليس كمثله شيء » . ونحن نشاهد ذلك في أنفسنا ؛ فالإنسان منا له حال حياة ، وحال موت . وفي حال الحياة له حالتان : حالة يقظة ، وحالة نوم . وفي حالة اليقظة نحن نرى بقانون البصر ، ولهذا البصر حدود ؛ فهو محكوم بقانون الضوء ، وكذلك السمع محكوم بقانون الصوت والموجة والذبذبة .

ومع ذلك فالإنسان ينام ويغمض عينه ويرى رؤيا فيها ألوان حمراء وخضراء وغيرها ، فبأي شيء أدركت الألوان وعينك مغمضة ؟ إذن فإدام في البشر رؤيا بدون عين فلا تقل عن رؤيا الله لنا إن له عيوناً مثل عيوننا ، بل هو يرى في إطار ليس كمثلته شيء . إنه سبحانه وتعالى قيوم يحكم حياته في الزمان والمكان في حالة يقظتهم وفي حالة نومهم .

ومثال من حياتنا اليومية ، نحن نجد الرجل وزوجه ينامان في فراش واحد ، وقد يرى الرجل في المنام أنه يواجه أعداءه ، وترى الزوجة نفسها محاطة بسعادة الأبناء والأحفاد ، ويستيقظ كل منهما ليحكى ما رأى في أكثر من ساعة ، عل الرغم من أن مع الإنسان لا يعمل في أثناء النوم إلا لسبع ثوان .

إذن ، ففي النوم تلغى المعية وكذلك الزمن ، والمكان . فإذا كانت تلك هي القوانين التي تحكم الإنسان ، فعلينا أن نعرف أن خالق كل القوانين وهو الحق لا يمكن إدراك صفاته ، وعلمنا أن نأخذها في إطار : « ليس كمثلته شيء » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ يُطِيمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

والهمزة هنا في « أخير » بسمونها همزة الإنكار كقول قائل : أنسب أباك ؟ إنها ليست استفهاماً بقدر ما هي توبيخ ولوم . وكذلك : « أخير الله اتخذ ولياً » . أي أن الحق يأمر رسوله أن يستنكر اتخاذ ولي غير الله .

إن اتخاذ الله كولي هو أمر ضروري ، لأن الإنسان تطرأ عليه أحداث تؤكد له أنه ضعيف وله أخيار ، وساعة ضعف الإنسان لا بد أن يأوى إلى من هو أشد منه قوة

ولا يتغير . إن الولي - وهو الله - قوي لا يمكن أن نصير ضعفاً ، وغناه لا يمكن أن يفتقر ، وعلمه لا يمكن أن يثول إلى جهل . إنه مُغيّر ولا يتغير . ولذلك فمن نعمة الله على خلقه أنه جعل من نفسه ولياً لهم ، فهو صاحب الأخبار .

والحق سبحانه وتعالى يعلم خلقه أن يكونوا أهل حكمة ، يضمون الأمور في نصابها ويتوكلون عليه ، فهو الحق الذي لا يموت . ونلاحظ أن الحق هنا يأمر رسولاً بالبلاغ عنه . وتتجلى هنا دقة الأداء القرآني فيأتي البلاغ كما نزل من الحق حرفياً .

مثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

(سورة الإخلاص)

ويبلغنا الرسول ﷺ بالنص القرآني كما نزل عليه ، مبشراً بكلمة « قل » ويبلغنا الرسول لنا بأمانة البلاغ عن ربه . وهو هنا يقول : « قل أغير الله أتخذ ولياً » . وهو الإله الذي جاءت كمالاته في الآيات السابقة ، الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور وله ما سكن في الليل والنهار ، هذا الإله الحق هو الجدير بالعبادة .

ويريد الحق لرسوله أن يستخرج من الناس الإجابة ، لا أن يقول هو : لا أتخذ ولياً غير الله ، وسبحانه يأمر رسوله أن يسألهم : « قل أغير الله أتخذ ولياً » . وليكن السؤال مطروحاً منك يا رسول الله تليفاً عن الله ، وتعطى لهم الحرية في الإجابة ، وسيكون الجواب كما تريد .

وعندما يسمع الإنسان مثل هذا السؤال لا بد أن يسأل نفسه ويدير عقله كي يجد جواباً . ولن يجد الإنسان جواباً سوى أن يقول : ليس لي وكلي غير الله ، فالولي هو القريب الذي ينصر الإنسان في ضعفه ، وإن استصرخه جاء لينقذه .

ولا يستصرخ الإنسان أحداً إلا إذا اتباه حادث جلال ، فإذا ما جاء القوى ليخيت صاحب الصرخة فهو يطمئن إلى أن من جاءه يمينه ويخلصه . واتخاذ الولي أمر فطري في الكون ، والأمير المنكر أن يجعل الإنسان لنفسه ولياً غير الله . ونحن المؤمنين - نتخذ بعضهم بعضاً أولياء في إطار الولاية لله مصداقاً لقوله الحق :

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

(سورة النوبة)

ويتبادل المؤمنون والمؤمنات المحبة والنصرة طبقاً للتعاهد الإيماني بينهم وبين الحق سبحانه وتعالى ، ويأمر بعضهم بعضاً بأوامر المنهج ، وينهى بعضهم بعضاً عن المحظورات التي حرمها الله ويتواصلون مع الحق بإقامة الصلاة . ويؤدون حق الله في ما لهم بالزكاة ، ويطيعون الله ويمثلون أوامر رسوله ، وهم بذلك يتألون وعد الله الحق بالرحمة ، وهو سبحانه القادر على رعايتهم ، وهو حكيم في صيانتهم ، عزيز لا يغلبه أحد .

إذن فأنت تطلب الولي لحظة الضعف ، ولحظة الشدة ، ولا يوجد إنسان استوث له كل زوايا الحياة فيصير قريباً لا يضعف أبداً ، أو يصير غنياً لا يفقر أبداً . ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، فلم نر قوياً ثبتت له قوته ، ولا غنياً ثبت له ثروته ؛ فالإنسان ذنب الأغيار ، وتأتي له حالات فوق قدرته ؛ لذلك فهو يسأل عمن يعينه ويساعده . والمؤمن يحب أيضاً أن يكون قريباً ليساعد غيره ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد وزع المواهب على خلقه في الكون ليضمن بقاء الولاية واستمراريتها ، فأنت في احتياج إلى عمل إنسان آخر ؛ لأنك ضعيف في ناحية وغيرك قوى فيها ، الطبيب يحتاج إلى المهندس ، والمهندس يحتاج إلى الطبيب ، والطبيب والمهندس يحتاجان إلى الفلاح ، والفلاح يحتاج إلى عمل المهندس والطبيب ، والطبيب والمهندس والفلاح يحتاجون إلى عمل المحامي .

مكنذا وزع الله المواهب في الكون ، ولم يجعل من إنسان جمعاً لكل المواهب . وذلك حتى يتساند المجتمع لا بالتفضل والتكرم بل بتساند الحاجة . فكل إنسان هو سيد في زاوية ما من زوايا الحياة ، وبقيّة الزوايا يسودها غيره من البشر ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿عَمَّنْ قَسَمْنَا بِنَهُمْ مِمِّشْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآ وَرَحِمَتْ رَبُّكَ خَيْرَ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزمر)

هذا هو الإعلان من الله سبحانه وتعالى بأنه وزع المواهب بين البشر ليتساندوا ويُسخر بعضهم بعضاً في قضاء حوائج بعضهم بعضاً لتنظيم أمور الحياة . وفي هذا التقسيم رحمة من الحق بالخلق . فلو تساوى الناس في الذكاء ، وصاروا كلهم من العباقرة ، فمن هو الذى سيتولى أمور تنظيم الشوارع ؟ ومن الذى سيقوم بأعمال وصيانة المباني ورعاية وإطعام الحيوان والقيام على أمره ونحو ذلك من الأمور التى لا تنظم الحياة إلا بها ؟

وكلنا يرى الرجل الذى يترج آبار المجارى ويخرج فى الصباح قائلاً : يا فتاح يا عليم ، يا رفاق يا كريم . ويطلب بئراً جديداً من المجارى ليتزره حتى يكسب قوت نفسه وعياله . وكل منا مضطر ومحتاج إلى غيره ، وهذا هو معنى :

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزمر)

إذن فانتخاذ الولي هو أمر فطرى . والإيمان بالله يعطينا ذكاء اختيار الولي . فالإنسان المؤمن عليه أن يختار الولي الذى يجده عندما يحتاج إليه ، لذلك فعليه أن يختار ولاية الله ، ولا يختار ولاية الأغيار . فيسخر الله للمؤمن حتى هدوه لينضمه . لذلك يبيننا الحق على لسان رسوله : « قل أغير الله أتخذ رباً » والذين يتكبرون علينا أن نتخذ الله ولياً ويريدون أن نتخذ غيره يرون فى أنفسهم المثل . فقد يخيب رجاؤهم ، فالإنسان منهم قد يتخذ إنساناً مثله ولياً ، وساعة يحتاج إليه يجده مريضاً ، أو غائباً أو تغير قلبه عليه ، لكن المؤمن يختار الله وليه لأنه الذى لا يغيب ولا يتغير ، ولا يضعف . ولا ينكر القرآن أن يتخذ الإنسان له ولياً من البشر ، ولكن الحق يدلنا على أنه الولي الحق ، وأن المؤمن عليه أن يتخذ إخوته المؤمنين أولياء له ، لأنها ولاية من الله وفى الله .

وإنت أيها المسلم حين تختار الحق سبحانه وتعالى ولياً لك فهو الذى يُحضر لك كل روايا المواهب ويعدّها ويهيئها لتكون فى خدمتك ، لأنه سبحانه وتعالى دفاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ، وقد خلق الحق السموات والأرض على غير

مثال . وسبحانه قد أبدع هذا الكون دون نموذج سبق . وحين أراد سيدنا عيسى عليه السلام أن يثبت لقومه معجزته جاء بالطين وجعله كهيئة الطير ، إذن فهناك مثال سبقه ووجده واتبعه . وعيسى إنسان من الخلق ، أما خالق كل الخلق فقد خلق السموات والأرض على غير مثال . وأنت أيها الإنسان قد لا تلتفت إلى مسألة خلق السموات والأرض لأنك تراهما كل لحظة بصورة وثيقة ، وقد تظن أنها مسألة سهلة ، ولكن الحق سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَسَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة غافر)

وهو سبحانه يقسم أن خلق السموات والأرض مسألة أكبر وأدق من خلق الناس لكن أكثر الناس لا تعلم ذلك . فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (سورة الذاريات)

وفي قوله (وإنا لموسعون) إشارة إلى خلق هذا الكون المرئي وغير المرئي ، لأن هناك الكثير من الأجرام والمجموعات الشمسية ، وما وراء ذلك من اتساع ذلك الكون ما لا يدركه العقل ولا يمكنه تحديده ، وهذه السمة المزعمة هي من قدرة الله سبحانه وتعالى . (وإنا لموسعون) .

ولجد الحق يستخدم كلمة : « فاطر » مرة في شيء مصلح ، وأخرى في شيء مفسد . والمثال للشيء المصلح هو ما يقوله الحق هنا : « فاطر السموات والأرض » أي أنه خالق السموات والأرض على غير مثال سابق وبإقتدار محكم .

ويقول الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ (سورة الانقطار)

أي أن الحق ينبه هنا إلى يوم الهول الأعظم الذي تنشق فيه السماء وتساقط فيه

الكواكب فلا يؤدي أي شيء منها مهمته ، لأن الله - سبحانه - سلبها ما كانت به صالحة .

ويقول أيضاً :

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ (سورة الملك)

فالخلق لا يعجز عن شيء ، وهو الخالق لبع سموات بإتقان بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظر أي خلل في هذا الخلق ، وليُبعد الإنسان النظر إلى السماء فلن يجد أي خلل من شقوق أو فروق .

وفطوره هنا معناها شقوق . إذن فالخلق - بتمام قدرته - يعطي الشيء من الصفات ما يجعله صالحاً لأداء ما خُلق له فلا يظن ظان أنه خرج عن قدرة خالقه - سبحانه - وخلق السموات والأرض بتمام إبداع وإحكام ، وهو القادر على أن يظفرهما ويجعلهما خبر صالحتين في أي وقت شاء ، ومثلهما الشمس تكوّر ، والنجوم تطمس ، والجيال تنسف .

وقال عالم من العلماء : ما فهمت كلمة « فاطر » إلا حين جاء أعرابي ، وقال : فلان بنازعني في بشر أنا فطرتي . أي أن الأعرابي هو الذي بدأ حفر البئر . إذن فاطر السموات والأرض . . أي الذي خلقهما على غير مثال . وسبحانه وتعالى القائل : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة الانبياء)

وهذا القول الحكيم لم يصل إلى فهمه العميق من سبقونا ، لكن إنسان هذا العصر الذي نعيشه فهمها بعد أن توصل العلماء إلى أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة وفصلتهما الحق بإرادته . وجعل من الماء حياة لكل كائن حي .

إذن هو سبحانه قادر على كل شيء ، ولا يخرج شيء عن نطاق قدرته . وهو

سبحانه قبل أن يمتن علينا بخلق الحياة فهو يحذرنا أن يأخذنا الغرور بهذه الحياة ،
ولذلك قال :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ
وَالْحَيَاةَ لِيُبْلِغَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴾
(سورة الملك)

وكانه ينبه الإنسان إلى أن يستقبل الحياة ، ليعرف أنه سبحانه أوجد ناقض الحياة
وهو الموت ، فإياك أن تأخذ الحياة على أنها تعطيك قوة الحركة والإدراك والإرادة
برتابة وأبدية ، لأن هناك ناقض الحياة وهو الموت .

وها هو ذا سبحانه يقول في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ
الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا
تَعْلَمُونَ (٦١) ﴾
(سورة الواقعة)

والإنسان لا يرى الحيوانات المثوية المقادفة منه في رحم زوجته ، ولا أحد يقدر
على ذلك ويرعاه حتى يصير جنيناً ثم بشراً ، ولكن الحق هو المقدر والخالق ، إنه
القادر الذي أعطانا الحياة وقدر علينا الموت ولا غالب له ، إنه يبدل صورتنا حين
يريد ، ويخلق غيرنا وينشئنا في صور لا نعرفها ، وهو الوهاب للحياة ، وهو الذي
يتزعمها بالموت .

ويقول لنا :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٢) أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّازِقُونَ (٦٤) ﴾

(سورة الواقعة)

هنا ينبها جل وعلا إلى أن الزرع الذي تاكله ، والثمار التي نجنيها من الأرض
ليس لنا فيها إلا إلقاء البذور ، وهو سبحانه الذي أودع في البذرة عجائب مخترنة ،
ففي البذرة ما يقضيها إلى أن يوجد لها جذير يمتص غذاءها من الأرض ، فتتم لها

ساقى ، ثم تقوى الجذور ، وتشتد الساق . ولا عمل للإنسان إلا إلقاء البذرة وحرث الأرض . ومع ذلك احترم الحق عمل الإنسان فقال :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾

(سورة الواقعة)

وعن الماء يقول الحق :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٥٩﴾ لَوْلَا نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

هذا الماء العذب الذى نشره إما أنزله الله من السحاب المطر . وعملية الإسطار هذه غاية فى التعقيد . والماء السارى فى الأنهار إنما جاء من المطر الذى تم إنزاله من السماء . فقد أرسل الحق أشعة الشمس لتبخر الماء من البحار . وتتجمع فى سحب ثم يجرى الله عليها أمره من مرور تيارات هواء باردة فتسقط مطرا .

ونحن عندما نقطر كوب ماء فى معمل ، نأتى بموقد وإناء ووقود ، ونضع الماء المراد تقطيره فيتبخر ، ثم نكتف قطرات البخار بواسطة تيار من الهواء البارد . ومثل هذه العملية تكلفنا الكثير من العمل الذهبى والمادى لبناء مثل هذا الجهاز حتى نقطر كوباً من الماء ، فما بالنا بالمطر الذى يتزل مدراراً وسيولاً .

إننا نجد ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من ماء ، إنه - سبحانه - بسطه على رقعة واسعة ، حتى يسهل البخر . وإذا ما نثرنا كوب ماء على سطح متسع فى أبرد مكان فلسوف يتبخر . وهذا الانتشار المسطح للمياه هو الذى يسهل عملية البخر .

ويصعد البخار من مياه المحيطات والبحر إلى أعالي الجو ثم يتكثف فى صورة قطرات صغيرة من الماء تتساقط كمطر متفاوت من منطقة إلى أخرى . وسبحانه قد أعد لكل أمر عدته . وهو أيضاً القادر على أن يذهب صلاح هذا الماء .

ويقول لنا الحق :

﴿ أَلَمْ يَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ (٧٣) ﴾

(سورة الواقعة)

ويذكرونا هنا سبحانه بأنه الذي خلق النار التي نشعلها ، وقد جاء بالمصدر الأول للوقود ، وهي الأخشاب التي كانت أشجاراً خضراء وبعد ذلك جفت وصارت أخشاباً نوقدها ونشعل فيها النار . وفي كل ذلك تتجلى لنا قدرة الحق سبحانه وتعالى ، فنسبح باسمه العظيم :

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾

(سورة الواقعة)

وننزهه سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك في أمور الخلق والكون .
إذن فعندما يقول الحق سبحانه مبدئاً رسوله :

﴿ قُلْ أَصْبَرُ لِلَّهِ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُلْطَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ (١٤) ﴾

(من الآية ١٤ سورة الأنعام)

هذا السؤال يجبرنا على أن ندير أمر اختيار الولي في رؤوسنا وأن نعمل أفكارنا ، وأن نعرف أن اتخاذ الولي أمر وارد على النفس البشرية ، ولكن من الذي يستحق أن تتخله ولياً؟ ولماذا في تربية الحق لنا ما يعيننا على استنباط الفكرة السليمة والرأي الرشيد حين يقول لنا :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الفرقان)

ونعلم أن الإنسان لو اتخذ ولياً من البشر فهذا البشر عرضة للموت ، فتحس أيها الإنسان أنك وحيد في هذا الكون ، ولكنك عندما تتوكل على الله فهو حي لا يموت أبداً ، وهو سبحانه : « فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطمع » وهو الذي خلق السموات والأرض على غير مثال ، وهو الذي يطعمنا من مطمور كثور الأرض التي أرادها قوتاً لنا ، ولذا جاء الحق هنا بمسألة الطعام ؟ إن الطعام لو أن من الرزق ،

والزرق - كما تعلم - رزق ينتفع به مباشرة ، ورزق يأتي لنا بما نتفع به مباشرة . فلو أن إنساناً في صحراء ومعه جبل من الذهب الخالص ولم يجد كوب ماء ولا رغيف خبز ، فجبل الذهب لا يماوى شيئاً .

إن جبل الذهب رزق ولكن لا ينتفع به مباشرة . والزرق الذي نتفع به مباشرة هو الطعام والشراب والكسوة . ونحن نحتاج إلى الطعام والشراب كل يوم ، ونحتاج إلى ملابس جديدة مرة كل ستة أشهر في المتوسط . إذن فالرزق المباشر هو المقوم الأساسي للحياة .

والدولي الذي ينصو لا بد أن تتوافر فيه القدرة على الإطعام الذي يمدنا بالقدرة التي هي أساس الحياة إنها طاقة استمرار الإنسان على الأرض . فالأم تطعم طفلها وهي تطعم أيضاً بما يأتيها زوجها من طعام . والحق سبحانه وتعالى وحده هو الذي يطعم كل الخلق ولا يطعمه أحد . وحينما نسلل كل عطاء في الدنيا نجدته ينزل إلى الله تعالى .

إذن فلا تجعل وليك في الوسائط ، بل اجعله في النيات ، لأن الوسائط كلها راجعة في الحقيقة إلى الله ، ويأتي الأمر من الحق لرسوله : « قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

وهذا الأمر يجرى من الأمر الأعلى وهو الله . فالرسول لم يقل : إن هذا الأمر منه ، لأنه بشر مثلاً ، وسبحانه أبلغ رسولنا أن يكون هو أول من أسلم ، وأن ينال شرف الالتزام بمبادئ الإسلام ، والمثال على ذلك أن كل قائد مسلم هو القدوة لغيره ، فيها هر ذا طارق بن زياد الذي فتح الأندلس وهي ملك عريض ، ونزل من السفن وقال لجنوده : أنا لم أسركم أمراً أنا عنه بنجوة - أي أنا بعيد عنه - بل أنا محكم ، واحملوا أنى عندما يلتقى الجمعان حامل بضى على طاعة القوم « لزيق » فقاتله إن شاء الله . إنه لم يأمر بأمر لم يطبقه على نفسه ، بل طبقه على نفسه أولاً ، وأقّة الاوامر أن كل إنسان يأمر أمراً ولا يطبقه على نفسه .

ومن قبل ذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد حكم نفسه أولاً فحكم الدنيا ، لقد جمع آثاره أولاً وقال لهم : إني سأشرع للمسلمين ، والذي

نفسى بيده من خالفنى منكم إلى شيء فيه لأجملته نكالا للمسلمين .

لقد أراد عمر - رضوان الله عليه - أن يحكم أقاربه أولاً ضارباً المثل لولى لى أمر ليحكم أقاربه أولاً ، وأن يحذرهم أن يستغلوا اسمه ، ليستقيم الأمر بين المسلمين ؛ لأن الألفة أننا نجد الكثير من الناس تتكلم في الإسلام ، ويريد كل إنسان من غيره أن يكونوا مسلمين بينما هو لا يطبق على نفسه مبادئ الإسلام . والحق سبحانه وتعالى أنزل لرسوله الأمر : « قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

ومعنى « أسلم » أى ألقى زمام حياته إلى من يقى في حكمته وعدله وهو الحق سبحانه وتعالى . وعندما كنا صغارا كنا نلقى زمام أمورنا لمن ينولى تربيته ونرى الآباء والأمهات وهم يتعبون ويشقون ، نطيع أوامرهم إلى أن نصل إلى المراهقة فتتسرفينا الذاتية ، ونجد المراهق وهو يرفض مثلاً ارتداء البنطرون القصير ويرتدى البنطرون الطويل . ويختار ألوان ملابسه في ضوء الأزياء الحديثة السائدة . وبعد ذلك يبدأ الشاب في إدارة أموره بنفسه .

وأفة حياتنا أننا نهمل تربية الأبناء وهم صغار ، ثم نأى لنقول : هيا لنربي الشباب متناسين أن الشباب مرحلة تمثل بطاقة يمكن أن يستغلها المجتمع ، والتربية السليمة زمانها الطفولة . « قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » . وما هوذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل عن رب العزة ، ويخبرنا أنه صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ، وأنه تلقى الأمر بعدم الشرك بالله .

فإياكم أيها المسلمون أن تتعاطموا على مثل هذا الأمر ؛ لأن المصطفى المختار هو أول من أمره الحق بذلك ، وإياك أيها المسلم أن تجد غضاضة في أن تلقى أمراً من مخالفتك ؛ لأن الغضاضة قد تأتيك عندما يصدر إليك أمر من مساو لك ، لكن التوجيه الصادر من الحق لا بد أن يلزمك وترتضيه نفسك ويطمئن به قلبك ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجهد نفسه عندما يقابل حادثة ليس فيها حكم الله ، ويأى الرسول صلى الله عليه وسلم بحكم من عنده ، فإن كان الحكم صحيحاً فإن الحق ينزل من القرآن ما يؤكد ، وإن احتاج الحكم إلى تعديل ، فإن الحق سبحانه ينزل التعديل اللازم للحكم ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديل الحق

سبحانه وتعالى له ولا يجد غشوة في ذلك ، بل يلغنا بيشاشة وصلق وامانة أنه
البلاغ عن الله .

والحق سبحانه وتعالى قد منَّ على رسوله صلى الله عليه وسلم عندما لم يعدل في الحكم احتراماً لاجتهاده صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿مَنْ آتَاهُ مِنْكَ لَازِمَةٌ فَاسْرِغْ بِهَا وَتَعْلَمِ الْكُتُبُ ۝﴾

(سورة التوبة)

لَقَدْ أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض المنافقين بالتخلف عن القتال قبل أن يبين أمرهم ليحلم الصالح منهم - في عذره - من الكاذب . وجاء العفو من الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهد ببشريته وأبلغنا الرسول بما أنزله الله .

ونحن في حياتنا اليومية - والله المثل الأعلى - نفتح كراسة الابن فنجد أن فيها شطباً بالقلم الأحمر ، فنأل الابن : من الذي فعل ذلك ؟ فيقول الابن : صوب لي المدرس الأول هذا الموضوع . هو لم يتحدث عن تصويب المدرس ، ولكن عن تصويب من هو أعلى من المدرس . وهذا شرف للتلميذ . فما بالنا بالتصويب الأعلى سبحانه وتعالى . وهاهنا الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى عن الله :

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ



 عظیم

إنه الرسول المصطفى والمجتبى والمعصوم يعلن أنه يخاف الله ؛ لأن قدر الله لا يملكه أحد ، ولا يغير قدر الله إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد خلق الخوف على شرط هو عصيان الله . لكن مادام لم يعص ربّه فهو لا يخاف . ووجود « إن » يدل على تعليق على شرط ولا يتأق ذلك من الرسول المعصوم لأنه لا يعصى الله .

وقد أراد الحق أن يبين لنا أن المعصوم لا يتأتى منه عصيان الله . لكن هذا القول

يأتى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لنعلم أن هناك عذاباً عظيماً توعد به الله من يعصيه . وهو عذاب يلح على العاصى حتى يأتى إليه . ولهذا العذاب خاصية أن تكون بينه وبين العاصى جاذبية كجاذبية المغناطيس لغيره من المواد . ونجاة الإنسان من العذاب تحتاج إلى من يصرف عنه هذا اللون القامى من العذاب ، يقول الحق سبحانه عنه :

﴿ مَن يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ يَذِفَقَدْ رَجِعَهُ وَذَلِكَ
الْفَوْزُ الْمُبِينُ ١٦ ﴾

فكان من لا يصرف عنه هذا العذاب هو من ينجذب إلى قوة العذاب ؛ لأن لنار جهنم شهيقاً يجذب ويسحب إليه الذين قُدِّرَ عليهم العذاب ويقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ١٧ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا
شَهيقاً وهي تَفُورُ ١٨ ﴾

(سورة الملك)

والذين يكفرون بالله لهم العذاب الذى يبدأ بسماع شهيق جهنم في أثناء فورانها . والشهيق كما تعلم هو قوة تجذب وتسحب الهواء إلى الأنف والصدر ، فما بالنار بقوة شهيق جهنم وهي تسحب وتجذب الذين وقع عليهم الأمر بالعذاب ؟

وهذه النار نفسها ترد على سؤال الحق لها عندما تسمع قوله :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ١٩ ﴾

(سورة ق)

إذن فقوة العذاب التى جعلها الله مهمة لجهنم هي التى تلح وتندفع لطلب المزيد من عقاب الكافرين . وسبحانه خلق كل شيء ليؤدى مهمة ، والنار مهمتها أن تمتثل لأمر الحق تبارك وتعالى عندما يأمرها بمباشرة مهمتها ؛ لذلك فهي تلح في طلب الذين سيقعون بالعذاب ، ولا تخرج النار أبداً عن أمر الله وقدره ، فإن صرف الحق